الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له والشارح والسامعين في كتابه «الأصول الثلاثة» :
الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةٌ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ . والدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

فهذه المسألة الثالثة من المسائل الثلاث التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، وأن يعتقد مضمونها ، وأن يعمل بها .

والمسألة الأولى عرفناها وهي : طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلق ورزقهم ولم يتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم الرسل ، فمن أطاعهم دخل الجنة ، ومن عصاهم دخل النار .

والمسألة الثانية : توحيد الله وإخلاص الدين له ، والبراءة من الشرك والخلوص منه ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يرضى من عباده إلا التوحيد ، ولا يرضى الشرك ، ولو كان الذي أتخذ شريكاً مع الله ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلأً ،

فإنه جل وعلا لا يرضى الشرك ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ،

فهو جل وعلا لا يرضى إلا التوحيد ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] .

فلما ذكر رحمه الله تعالى المسألتين الأولى والثانية ؛ ذكر المسألة الثالثة ، وهي مترتبة على المسألتين الأولى ومنبئية عليهما ، وهي بغض الكافرين وعدم موالاتهم وتوليهم وعدم محبتهم ؛ فإن هذا أمرٌ لا بد منه ولا يستقيم الإيمان إلا به، فمن كان مطيعاً للرسول صلى الله عليه وسلم حقاً وموحداً لله تبارك وتعالى صدقاً فإنه يجب عليه أن يبغض أعداء الله وأعداء دينه وأن يبغض الكافرين المشركين ، لأن الإيمان والتوحيد والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام لا تستقيم إلا بذلك ، فلا يمكن أن يكون مطيعاً للرسول عليه الصلاة والسلام وموحداً لله تبارك وتعالى ثم تكون

نفسه محبةً للكافرين مواليةً لهم غير مبغضٍ لهم ، هذا لا يوجد ، كما يأتي معنا في الآية الكريمة ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ ، فإذا وُجد الإيمان الصحيح والتوحيد ووُجد الطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام فإن من لوازم وجود ذلك ومقتضياته أن يكون مبغضاً للكافرين .

والكافر رب العالمين يبغضه ولا يحبه قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥] ، والكافر أشد الناس ظلماً لأن ظلمه وعدوانه في حقوق الله على عباده، قال الله تعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ، والكافر هضم بظلمه حقوق الله على عباده وما خلقهم تبارك وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، والكافر أمر الله سبحانه وتعالى في آي كثيرة من القرآن ببغضه وعدم توليه ، وذكر الله جل وعلا ذلك في مقتضيات الإيمان حيث تُبدأ الآيات في هذا الباب بـ {يا أيها الذين آمنوا} .

فبناء على هذا لا يستقيم الإيمان بالله وتوحيده سبحانه وتعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام إلا ببغض الكافرين المشركين وعدم موالاتهم والبراءة منهم وببغضهم في الله سبحانه وتعالى ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله)) وقال عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((من أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)) .

والله جل وعلا ذكر لنا في هذا الباب أسوة وهم رسله وأنبياءه ، ويجب علينا أن نأتسي بهم وأن نجعلهم أئمة لنا وأن تقتدي بهم ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤] فأعلنوا البراءة من الكافرين وأعلنوا البراءة مما يعبده الكافرون من دون الله ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ ففيها براءة إبراهيم عليه السلام وبراءة أهل الإيمان معه من الكافرين ومما يعبدون من دون الله وإعلان ذلك ، وذكر الله جل وعلا لنا هذا في مقام الاتساء والافتداء قال : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يأتسي بإمام الحنفاء وأن يقتدي به ، والله يقول : ﴿وَمَنْ يُرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي إلا من حكم على نفسه بالسفَه والغبي .

فهذا بابٌ عظيم من أبواب الدين وقواعده التي يجب وينبغي على كل مسلم أن يتعلمه، وأن يعتقد مضمونه ، وأن يعمل به - كما نصّ على ذلك المصنف رحمه الله في أول هذه المسائل - فهذا واجب ديني ومطلب إيماني ، وهو من مقتضيات التوحيد ولوازمه ؛ أن يكون المسلم مبغضاً للكافرين ، وألا يتخذ أحداً منهم ولياً يحبه ويتولاه ويؤاذه

ويصافيه، بل الواجب عليه أن يبغضه وأن يتخذ عدواً ، وكيف لا يتخذ المسلم الكافر عدواً والكافر عدو الله؟! فلا يجتمع إيماناً بالله جل وعلا وحباً لأعدائه ؛ ولهذا جاء في القرآن آيات عديدة تقرر هذا الأمر ووجوب البراءة من الكافرين ووجوب بغضهم وعدم موالاتهم .

وفي القرآن الكريم آيات ثلاث في هذا الباب - باب بُغض الكافر وعدم موالاته - كل آية منها تبدأ بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا﴾ ؛ الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث فيها عدم اتخاذ أيّاً من الكافرين عموماً ولياً ، والآية الثانية فيها التنصيص على اليهود والنصارى من الكفار. الآية الأولى عامة في عموم الكفار كل كافر ، والآية الثانية خصت النصارى واليهود بالذكر ، والآية الثالثة خصت القرابة من الكافرين ؛ أباً أو أخاً أو غيرها .

❖ الآية الأولى: هي قول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المتحنة: ١] ؛ فهذه عامة في كل كافر عدو الله ، وكل كافر بالله فهو عدو الله سبحانه وتعالى ومبارزٌ لرب العالمين بالعداوة ، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه ليعبده وأوجده ليذلّ له ويخضع ويصرف له العبادة وحده دون سواه ، فلما أضع حقوق الله وصرفها لغيره ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعا ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً صار بذلك عدواً لله بغيضاً لله ؛ يبغضه الله ولا يحبه فإنه لا يجب الكافرين سبحانه ، وهو جل وعلا لا يرضى الكفر ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ، فهذه في كل كافر .

❖ والآية الثانية: قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ؛ فهذه فيها تخصيص النصارى واليهود بالذكر ، وأن الواجب على المسلم أن لا يتخذ أحداً من اليهود والنصارى ولياً ، ولا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ؛ لأنهم كفار بالله ، والله سبحانه وتعالى حكم بكفرهم وعداوتهم له في آيات من الكتاب العظيم .

❖ والآية الثالثة: قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣] ؛ فخص هنا بالذكر الإخوان والآباء ، وهذا يتضمن عموم القرابة من الأعمام والأخوال ونحو ذلك من القرابة .

فلا يحل ولا يجوز لمؤمن أن يتولى أحداً من الكافرين وأن يوالي أحداً من الكافرين ، بل يجب أن يكون في قلبه بُغضٌ لهم وكراهية لهم ، وأن يتخذهم أعداء ويعتبرهم أعداء كما هو مبين في أي كثيرة ومواقع عديدة من كتاب الله تبارك وتعالى ؛ وهذا هو مقتضى الإيمان بالله جل وعلا وتوحيده ولازم طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى في هذه المسألة العظيمة قال : ((أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ)) وهذه المسألة الأولى

((وَوَحَّدَ اللَّهُ)) وهذه المسألة الثانية ((لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله)) ؛ «لا يجوز له» أي: يحرم عليه ولا يحل له موالاة من حاد الله ورسوله .

والموالاة : هي المودة والمصادقة والمحبة ؛ فهذا أمر لا يحل له . وضد الموالاة : المعاداة والمحاداة والبغضاء ، وهذا هو الواجب . فقولته في الآية : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ نفي ذلك إثبات لصدقه ، فقولته : ((لا يجوز له موالاة من حاد الله)) أي يجب عليه أن يبغضهم ، فضع الموالاة : المعاداة والبغضاء ؛ وهذا الذي يجب على كل مسلم ومسلمة .

قال : ((لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله)) ؛ المحادة : هي المجانبة والمخالفة ، والذي حاد الله ورسوله كأن المعنى والمراد - كما قرر ذلك بعض أهل العلم - أي من كان في حد غير الحد الذي أمره الله سبحانه وتعالى وأمره رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون عليه ، ولهذا الناس في حدين :

- المؤمنون في حد الله ورسوله ؛ أي فيما حده الله لهم ورسوله ﴿تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٣] ، فالمؤمن فيما حده الله له وحده له رسوله صلى الله عليه وسلم .
- والكافر في حد الشيطان وجنوده .

ف «حاد الله ورسوله» أي: كان في محادة ومعاداة ومجانبة لما أمره الله سبحانه وتعالى به من التوحيد ، ولما يجب أن يكون عليه مع الرسول من الطاعة ؛ ولهذا قال : ((لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب)) يعني ولو كانت تجمع به رابطة قرابة قوية ، كأن يكون مثلاً أباً أو أمّاً أو ابناً أو بنتاً أو أخاً أو أختاً أو عمّاً أو خالاً أو عمّة أو خالة أيّاً كانت قرابته إذا كان كافراً بالله تبارك وتعالى لا يجوز له موالاته ولو كان أقرب قريب ، وإذا كان الكافر القريب من أبٍ أو ابنٍ أو أخٍ أو عمٍ أو خال لا تجوز موالاته فالكافر البعيد من باب أولى ، لأن هذا يجمع به قرابة ولها مقتضياتها ولها متطلباتها ومع ذلك يُخص بالذكر في هذه الآية وفي الآية التي مرت ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ، فالذي يستحب الكفر على الإيمان ويكون كافراً بالله سبحانه وتعالى لا تجوز موالاته بل يجب بغضه، يجب أن يكون في القلب بُغض له ومجانبة له وعدم محبة له وموالاة؛ هذا هو الواجب .

قال : ((ولو كان أقرب قريب)) ؛ لو كان أقرب قريب - كما أشرنا - ولو كانت القرابة شديدة .

ثم ذكر رحمه الله تعالى الآية الدالة على ذلك ، وأشرت فيما سبق أن الرسالة مختصرة ليس المقام فيها مقام بسط وإطناب ، وإنما المقام مقام إيجاز واختصار ؛ فيذكر المسألة ويذكر عليها دليلاً واحداً مراعاة للاختصار ، وإلا الأدلة على هذه المقاصد التي يذكرها في رسالته هذه في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بالعشرات إن لم تكن بالمئات .

قال : ((والدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾)) ، «لَا تَجِدُ» الخطاب موجه لنبينا صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿لَا تَجِدُ﴾ ؛ أي أيها النبي ﴿قَوْمًا﴾ ؛ أي جماعة وطائفة ، والحكم كذلك ينسحب على الأفراد .

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني من صفتهم الإيمان بالله واليوم الآخر ثم في الوقت نفسه يوادون من حاد الله ورسوله ؛ أمران لا يجتمعان في قلب ، لأن من لوازم ومقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر ألا يوالي الكافر ولو كان أقرب قريب ، ولهذا قال : ﴿لَا تَجِدُ﴾ أي لا يوجد ، فالذي يؤمن بالله واليوم الآخر مقتضيات إيمانه ولوازم إيمانه أن يبغض الكافر وأن لا يتولى كافراً ولو كان أقرب قريب .

وقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ؛ كثيراً ما يُجمع بين هذين الإيمانين : الإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخر في القرآن والسنة ، وذلك لأن الإيمان بالله هو الغاية المقصودة ، وهو أصل الأصول ، وهو قاعدة الدين ، وهو الذي خلُق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه ، واليوم الآخر لأنه الدار التي جعله الله سبحانه وتعالى دار الجزاء للفريقين أهل الإيمان ومن سواهم ، فكثيراً ما يُجمع بين هذين الإيمانين : الإيمان بالله لأن هذا هو المقصود أصالة وهو الغاية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها وهو أصل أصول الإيمان وأساس أسس الدين ، والإيمان باليوم الآخر لأنه دار الجزاء والحساب والعقاب ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن دعوة كل نبي بعثه الله تركز على محاور ثلاثة :

■ المحور الأول : التعريف بالله ، وبيان أنه وحده المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وتعريف الناس به بذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمته وجلاله .

■ والمحور الثاني : تعريف العباد بالطريق التي توصلهم إلى الله وينالون بها رضاه ، وهي شرائع الدين وتفصيل الإيمان وشعبه .

■ والمحور الثالث : تعريف الناس بدار الجزاء والعقاب وما أعده الله سبحانه وتعالى لمن أطاعه من ثواب وما أعده لمن عصاه من عقاب .

فعلى هذه المحاور الثلاث تركز دعوة الأنبياء والمرسلين ، وهنا ذُكرت في هذه الآية الكريمة كما أنها ذكرت في آي كثيرة من القرآن الكريم مجتمعة ومتفرقة .

قال : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ؛ المادة عرفناها وهي : المحبة والموالاة وعدم البغض والمعاداة . ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ؛ قوله ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا وصف لكل كافر ، فكل كافر محاد لله ورسوله ، لأنه في حد الشيطان وجنوده ، وليس من حزب الله في شيء بل

هو في حد الشيطان وجنوده ، فكل كافر هذا وصفٌ له ؛ محاد لله ولرسوله ، عدو لله ورسوله صلى الله عليه وسلم

وهنا أنه على أمر كم غفل عنه أقوام وأقوام ولاسيما في هذا الزمان ألا وهو : أن بعض الناس في هذا المقام اغتر ببعض تعاملات الكفار فأعجبته وأدهشته ومال إليهم بسببها ، وأصبح بعض الناس يفتخرون ويعظمون أخلاق الكفار ، بل إذا أراد أن يتحدث عن الأخلاق وأن يبين مكانة التعامل لا يستشهد إلا بالكفار ولا يذكر في هذا الباب إلا الكفار ويقول : يتعاملون بكذا ويتعاملون بكذا وينضبطنون في كذا .. إلخ مما يفضي بالإنسان إلى ميل قلبه لهم وركونه إليهم وثقته بهم إلى غير ذلك من الآثار السيئة والعوائد الشنيعة ، والله سبحانه وتعالى نهي عباده أن يعترفوا بكافر أو أن يعترفوا بالكفار ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] ، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] . فالقرآن فيه آيات كثيرة تنهى عن الاغترار بالكفار مهما كانت أمورهم ومهما كانت أحوالهم لا يغتر بكافر .

وإذا أردنا في هذا الباب أن نتحدث عن الأخلاق فالحقيقة الجليلة في هذا الباب أن كل كافر لا خلق له ، لأن أعظم الأدب : الأدب مع الله جل وعلا ، وأعظم الخلق إقامة دين الله ، ولهذا قال جماعة من المفسرين منهم بعض الصحابة في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قالوا : على دين عظيم ، الخلق : الدين . وقول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) هذا الدين كله ، والذي يصرف حق الله لغيره ؛ يخلقه الله ويرزقه الله وينعم عليه الله ويتفضل عليه بأنواع النعم ؛ الصحة والعافية والسمع والبصر ثم حقوق الله يصرفها لغيره أين الأخلاق وأين الآداب ؟ ولهذا مهما كانت تعاملاته مع الناس ومصانعته للناس فكلها لا تجدي شيئا إذا أضع الأساس وهدم الأصل ، ولهذا قال الله : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] . ثم هذه الأخلاق التي يتعامل بها الكافر هل هو يتعامل بها يرجو بها ثواب الله والدار الآخرة ؟ أم أنها مصانعة في هذا الباب لأمر الدنيا وكسب المصالح وتحصيل الرئاسات وجمع الأموال وغير ذلك من الأسباب والمبررات؟ ولهذا ينبغي على المسلم أن لا يغتر ، وأن يكون في قلبه بغض للكافر ولو كان أقرب قريب .

قال الله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ . ولو كان هذا الكافر أبا الإنسان الذي خرج الإنسان من صلبه ، ولو كان هذا الكافر ابن الإنسان الذي خرج من صلبه ، ولو كان أخاه الذي جمعه وإياه رحم واحدة وصلب واحد ، ولو كان من العشيرة ، وغير هؤلاء من باب أخرى . قال : ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فذكر أن هذا لا يجامع الإيمان ، لا يجتمع معه .

ثم تم جل وعز الآية وختمها بذكر ثواب ومناقب وفضائل من كانوا كذلك ؛ لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب ؛ فذكر جل وعلا في هذا الباب سبعة أمور ننتبه لها .

قال : ﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة هنا إلى من ؟ الإشارة هنا إلى من لم يتخذ الكافرين أولياء ولو كانوا أقرب قريب ، فمن كان كذلك ما شأنهم ؟

❖ قال : ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ هذا الأمر الأول ؛ ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ : أي رسخه وثبته ورسمه في قلوبهم ، فهو إيمانٌ ثابتٌ راسخٌ في القلوب .

❖ الأمر الثاني قال : ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ ؛ والتأييد: التقوية . أي قوّاهم . ﴿بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ : أي بوحى منه ويمدد وعون ، والله سبحانه وتعالى سمي وحيه في غير موضع من القرآن «روحاً» ، كقوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ؛ وذلك لأن بالوحي تحيا القلوب ، سمي الله جل وعلا الوحي «روحاً» لأنه به تحيا القلوب ، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي: أيدهم بالوحي ونوره وضياؤه وأمدهم تبارك وتعالى بعونه وتوفيقه سبحانه وتعالى .

❖ والأمر الثالث : ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ؛ أي أن هؤلاء قد أعد الله سبحانه وتعالى لهم أجراً وهياً لهم كرامة ونزلاً ؛ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي أبد الآباد ؛ فهذا الأمر الثالث .

❖ الأمر الرابع قال : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهذه أعظم كرامة وأجل نعمة كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ، فرضا الله سبحانه وتعالى عنهم هذه أعظم كرامة وأعظم نعمة وأعظم منقبة فازوا بها .

❖ الأمر الخامس : ﴿وَرِضْوَانُهُ﴾ ؛ وهذا أيضاً أمرٌ يُنعم الله سبحانه وتعالى به على هؤلاء وهو أن يملأ قلوبهم رضا عن الله سبحانه وتعالى فيكونون مغتبطين فرحين في غاية الفرح والسرور بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به ، وبما أنعم به تبارك وتعالى عليهم ؛ فيكونون في تمام الرضا ، قال : ﴿وَرِضْوَانُهُ﴾ .

❖ الأمر السادس : وصف الله جل وعلا لهم بأنهم حزبه ؛ قال : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ ، والناس إما حزب لله وإما حزب للشيطان ، ومن لم يكن من أهل هذا الوصف فهو من حزب الشيطان ، فحزب الله هذه صفتهم وهذه نعوتهم وهذا ما وصفهم الله تبارك وتعالى به .

❖ الأمر السابع ختم الآية بذكر فلاح هؤلاء : ﴿الْإِنِّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ؛ والفلاح هو : حيازة الخير والحصول عليه بمجماعه ، ولهذا قيل : إن أكمل أو أحسن كلمة قيلت في حيازة الخير والظفر به هي كلمة «الفلاح» ، وأهل الفلاح هم هؤلاء ؛ ﴿الْإِنِّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

وهذه الأمور التي ذكر الله سبحانه وتعالى كل واحدٍ منها وحده كافٍ بأن يحرك القلوب تحريكاً قوياً وشديداً بأن تبغض الكافر ولو كان أقرب قريب ، فكيف بهذه الأمور مجتمعة؟! لاشك أن هذا فيه تحريكاً للقلوب بأن تبغض الكافر وأن لا تواليه وإن كان الكافر أقرب قريب .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى ذكر هذه المسألة العظيمة الجليلة وذكر دليلها من كتاب الله عز وجل . وهنا ينبغي أن يُعلم في هذا الباب -باب عدم موالاته الكافر وعدم تولى الكافر- كما سبق أن مرّ معنا ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ ينبغي أن يُعلم ما ذكره أهل العلم في بيان الفرق بين «التولي» و «الموالاتة» :

■ التولي الذي ذكره الله جل وعلا في قوله : ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا بحُب الكافرين ، وحب دينهم ، والفرح بانتصارهم ، ومعاونتهم على أهل الإيمان ، والسعي في نصرتهم هذا يسمى تولى ، وهو كفر أكبر ناقل من ملة الإسلام.

■ والأمر الثاني : الموالاتة ؛ وضابط الموالاتة: أن يحب الكافر لأمرٍ دنيوي لا لدينه ، ولا يكون منه نصرة للكافر لكن يحبه لأمر يتعلق بالدنيا ، مثل أن يكون للكافر له يد أو عطية أو نحو ذلك فهذه موالاتة . وموالاتة الكافر كبيرة من كبائر الذنوب ، والله سبحانه وتعالى نهي في القرآن عن موالاتة الكفار وعن تولى الكفار . وتوليهم ناقضٌ للإيمان مخرج من الدين ، وموالاتهم كبيرة يترتب عليها نقص الإيمان الواجب ، لأنه يجب على كل مؤمن ألا يوالي الكافرين .

ومما أيضاً يلتحق بهذا الباب وينبغي أن يُتنبه له: أنه لا يتنافى مع عدم موالاتة الكافر أن يعامل الكافر معاملة حسنة يتألف بها قلبه ويستميل بها نفسه بالدخول في هذا الدين ؛ فيكون في قرارة قلبه مبغضاً له وفي المعاملة الظاهرة يحسن إليه تأليفاً لقلبه ؛ ولهذا قال الله : ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨] ، ولما جاءت أم أسماء رضي الله عنها إليها تطلب منها صلةً ذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستشارته قال : ((صلي أمك)) ؛ فقوله عليه الصلاة والسلام : ((صلي أمك)) هذا لا يتنافى مع ما جاء في قوله ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ ، فتكون في قلبها مبغضة لها وكارهة لها لكن تصلها وتحسن إليها وتعاملها بالحسنى تأليفاً لقلبها . قال الله تعالى : ﴿وَإِنِّ

جَاهِدَاكَ ﴿١﴾ أَي الْأَبْوَانِ ﴿٢﴾ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعِمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿٣﴾ ، لم يقل ﴿٤﴾ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴿٥﴾ لم يقل فعقهما ، قال : ﴿٦﴾ فَلَا تُطْعِمُهُمَا ﴿٧﴾ أَي فيما يدعونك إليه من الشرك ﴿٨﴾ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿٩﴾ [قمان:١٥٠] أَي عاملهما في الدنيا معاملة طيبة ، وهذه المعاملة الطيبة لها أثرها على الكافر ؛ ولهذا لا بأس لو مرض يُعاد ، ولا بأس إذا كان جاراً أن يُهدى له ، في الأدب المفرد بسند جيد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذبح شاةً وقال : «أعطوا جارنا فلان» قالوا : اليهودي؟! كان يهودياً ، قال : «نعم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال جبريل يوصيني بالجار» ، وفي كتب الأدب لأهل السنة يعتقدون أبواباً تنص على هذا «باب الهدية للمشرك» ؛ يُهدى له الهدية من الطعام والكساء ونحو ذلك تأليفاً لقلبه ، بل جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى لبعض المشركين - أي طلب من الله أن يغيثهم ، أصيبوا بقحط فدعا الله سبحانه وتعالى أن يغيثهم - لماذا ؟ وهل هذا يتنافى مع بغضهم ؟ لا يتنافى ، ولكن هذا فيه تأليف لهم ، يجوز أن يُعطى بل هذا من مصارف الزكاة أن يُعطى من أموال الزكاة تأليفاً لقلبه واستمالة له ليدخل في هذا الدين .

ولهذا الإسلام في هذا الباب وسط ؛ ففيه النهي عن موالاته الكافر وتوليه ، وفيه أيضاً الأمر بمعاملة الكافر غير المحارب ﴿١٠﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴿١١﴾ [المتنحة:٨] فالكافر غير المحارب يعامل مثل هذه المعاملة ويلاين بالقول وبالهدية ونحو ذلك استمالة لقلبه لعل الله سبحانه وتعالى أن يهديه للإسلام ، وعندما نقرأ سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام نرى في هذا الباب عجباً في هديه صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا دينه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب وسط ؛ عدم موالاته الكافر وعدم توليه ، ولكن المعاملة الدنيوية يعامل بالرفق وبالحنى وبالمعاملة الطيبة لعل ذلك أن يكون سبباً في هدايته للإسلام .

وإذا كان أبو الإنسان كافراً أو أخوه أو أمه يجب عليه أن يبغضه لكفره ، وفي الوقت نفسه أن يعامله معاملة حسنة ﴿١٢﴾ وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٣﴾ [قمان:١٥٠] ؛ يخدمه ، يساعده ، يعاونه في مصالح دنياه لعل مثل هذا يكون سبباً لهدايته .

وأيضاً مما ينبغي أن يُعلم في هذا الباب -وكم زلّ فيه من زل - لا يعني بُغض الكافر أن يُقتل أينما وجد ، والشريعة جاءت بتفاصيل في هذا الباب ، ومتى يكون قتله؟ وجاءت الشريعة بتحريم قتل الكافر المعاهد ، أو الكافر الذمي ، أو الكافر المستأمن ، وترتبت على ذلك في الشريعة عقوبات شديدة منها ما جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من قتل مُعَاهِداً - المعاهد كافر - لم يرح رائحة الجنة)) .

- والمعاهد هو : الكافر الذي كان بينه وبين المسلمين حرب ودخل ديارهم بأمان .

- والمستأمن : هو الذي دخل ديار المسلمين بأمان .

- والذمي : هو الذي في ديار المسلمين وتحت حكم المسلمين ويدفع الجزية .

وهؤلاء كلهم كفار ولا يحل قتلهم . ولهذا من لا يضبط هذا الباب ولا يفهم دلائل كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وهديه في هذا الباب يقع في انحرافات لا حد لها ولا عد ، وجنبايات وتعديات على حدود الله تبارك وتعالى . ولهذا ينبغي على المسلم أن يعتني بهذا الباب عناية جيدة ، وأن يحرص أن يفهمه في ضوء كتاب الله تبارك وتعالى ، وأن يحرص أن يحقق هذا الأصل العظيم الذي يجب على كل مسلم أن يكون عليه وهو ألا يوالي أحداً من الكافرين وإن كان أقرب قريب .

وأيضاً مما ينبغي أن يُعلم في هذا الباب : أن أقسام الناس في الولاء والبراء والحب والبغض ينقسمون إلى أقسام ثلاثة :

✓ القسم الأول : وهم أهل الإيمان والصلاح والاستقامة على طاعة الله ؛ فهؤلاء لهم ولاء وحب لا بغض معه ، فإذا كان الرجل مؤمناً مطيعاً لله محافظاً على أوامر الله مبتعداً عما حرم الله فهذا يُحب حباً لا بُغض معه .

✓ القسم الثاني : وهو الكافر بالله تبارك وتعالى ؛ فهذا أياً كان - الكافر - يُبغض بغضاً لا حب معه .

✓ والقسم الثالث : من يُحب باعتبار ويُبغض باعتبار؛ يُحب باعتبار إيمانه وما عنده من صلاح وطاعة ، ويُبغض باعتبار ما عنده من فسوق وعصيان ؛ وهؤلاء عصاة الموحدين ومن أهل الإيمان والتوحيد لكن عنده معاصي لا تصل به إلى حد الكفر بالله ، فهذا يُحب على ما عنده من إيمان ويُبغض على ما عنده من فسوق وعصيان .

فإذاً الأقسام ثلاثة ؛ قسمٌ له حب لا بغض معه ، وقسمٌ بغض لا حب معه ، وقسمٌ له حب وبغض ؛ حب باعتبار إيمانه وما عنده من طاعة وبغض باعتبار عصيانه وما عنده من كبائر دون الكفر بالله تبارك وتعالى .

وأختم الحديث بدعوة صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم الدعاء بها ؛ وهي قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه :

((اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذي يقربني إلى حبك))؛ وهذه الدعوة من جوامع الدعاء

وعظيمه ، ومن رُزق هذه الأمور الثلاثة التي كان يدعو بها عليه الصلاة والسلام فقد جمع لنفسه الخير وفاز

بالفلاح ورضا الله سبحانه وتعالى . وقوله : «أسألك حبك» لأن الواجب على كل مسلم أن يعمر قلبه بحب الله

، وأن يكون حب الله تبارك وتعالى أساساً في قلبه يعمر قلبه ، وأن يميل بكلية قلبه إلى الله سبحانه وتعالى حباً .

وإذا ملأ قلبه بحب الله تبارك وتعالى يأتي بلازم ذلك وهو أن يحب من يحبه الله ؛ بمعنى أن يكون منطلقاً في حبه مما

يحبه الله ، والذي يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه بيّنه في كتابه ، وبيّنه نبيه عليه الصلاة والسلام في سنته «وحب

من يحبك» فهذا يدخل فيه حب الأنبياء وحب الصديقين والشهداء والصالحين من عباد الله ، وأنت إذا قلت

«وحب من يحبك» جمعت في دعوتك هذا كله ، «والعمل الذي يقربني إلى حبك» هذا فيه حب الصالحات والطاعات والقرب التي تقرب إلى الله سبحانه وتعالى وينال بها العبد رضاه عز وجل .
وبهذا ينتهي الحديث عن هذه المسائل الثلاث العظيمة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، وأن يعتقد مضامينها ومدلولاتها ، وأن يعمل بها ، وأن يثبت عليها مستعيناً بالله تبارك وتعالى إلى أن يتوفاه الله على خير حال وليفوز بأحسن عاقبةٍ وأحسن مآل .
والله أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله .